

الانبيادة

لفرجيل

بقلم : الدكتور إبراهيم بكر

ولد في الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ٧٠ ق.م، أثناء قنصلية «جنايوس پومپيوس ماجنوس Gnaeus Pompeius Magnus» ، «وماركوس ليكينيوس كراسوس Marcus Licinius Crassus» وذلك في قرية «أنديس - Andes» ، التي تبعد ما يقرب من ثلاثة أميال رومانية عن «مانتوا Mantua» إحدى مقاطعات «جاليا كيسالينا - Gallia Cissalpina» ، أي بلاد الغال الواقعة جنوب الألب المتاخمة لشمال إيطاليا . وقد أصبح يوم ميلاد فرجيل فيما بعد عيداً يحتفل به الشعراء والأدباء كل عام (١) .

لم يكن «فرجيل» اذن ، بحكم مسقط رأسه ، مواطناً رومانياً ، فلم تتمتع المقاطعة التي تنتمي إليها قرية «أنديس» بالحقوق الرومانية الا بعد أن بلغ «فرجيل» عامه الحادى والعشرين (٢) . ومن ثم

يحتل «فرجيل» في الأدب اللاتينى نفس المكانة التي يحتلها «هومر» في الأدب اليونانى ، كما تحتل ملحمة «الانبيادة» نفس المكانة التي تحتلها «اللياذة والأوديسا» ، وفرجيل هو أعظم شعراء عصر «أوغسطس» ، وخير شاعر يمثل هذا العصر ويعبر عن أحلامه وأمانيه ، كما أنه أكثر الشعراء اللاتين تأثيراً على الاجيال التالية .

اننا لا نعرف عن حياة «فرجيل» الا القليل . ومن هذا القليل ، الذي اتفق عليه معظم المؤرخين والرواة (٣) أنه يدعى پوبليوس فيرجيليوس مارو - Publius Vergilius Maro

(١) ان المصادر الاولى لحياة فرجيل المستقاة من الرواة القدماء قد جمعت في No. 72 of Lietzman's Kleine Texte (Bonn, Weber, 1911) p. 237, n. 6.

وهي تعتمد أساساً على دوناتوس ، فوكاس ،

سيرفيوس ، بروبوس وغيرهم . قارن

Rose, A Handbook of Latin Literature p. 237, n. 6.

كما يمكن الرجوع إليها أيضاً في J. Brummer, Vit. Verg, 1912 :

Martial, XII, 67

(٢) قارن

(٣) قارن :

A.S. Wilkins, Roman Literature, p. 70

فقد قال البعض انه من أصل غالى أو من أصل
أترمىكى •

أما عن عائلته فقد حاول بعض النقاد المحدثين (١)
أن يثبت أنها كانت تحتل مركزا محليا هاما ، اذ
يبدو أن أمه « بولاماجيا - Polla Magna » (٢)
كانت تنتمى الى أسرة منتشرة في ايطاليا ، وتتمتع
بمركز مالى لا بأس به ، وقد ذهب البعض أن
الاسم «ماجيا - Magia» المشتق من كلمة «Magus»
بمعنى ساحر ، كان من العوامل التي ساعدت على
خلق الاعتقاد ، الذى ساد في القرون الوسطى ،
بأن «فيرجيل» كانت له قدرة عجيبة على السحر (٣) .
وأما أبوه فقد كان ينتمى الى طبقة الفلاحين (٤) ،
ويبدو أنه كان يعمل فى بادئ الأمر أجيرا عند
والد زوجته المدعو « ماجيوس Magus » ؛ وقد
استطاع بجده ونشاطه و إخلاصه فى العمل أن
يكسب ثقة وعطف مخدمه الذى زوجه ابنته ،
وساعده على تكوين حياته الخاصة ، اذ نأناسمع
بعد ذلك أنه قد أصبح لوالد فيرجيل أرضه الخاصة ،
ولا ندرى على وجه التحديد كيف آلت اليه ملكية
هذه الأرض ، هل هى ثمرة مجهوده وكفاحه ،
أم أنها آلت اليه كمهر لزوجته ، أم أنه ورثها

(١) انظر :
M.L. Gordon in Journ. Rom. Stud., 1934,
pp. 1—12 ; Cited in Rose, op. cit.,
p. 237, n. 7.

(٢) انظر :
Probus: 'Natus... matre Magia Polla, cited
in Brummer, op. cit. P. 73 ; Focas :
'Mater Polla fuit, Magli non infima
probes', cited in Brummer, op. cit., p. 50.

(٣) انظر :
J.W. Duff, Literary History of Rome, to
the close of the Golden Age, p. 319.

(٤) قارن :
Probus, 'Patre Vergilio rustico', in Brum-
mer, op. cit. p. 73; cf. Macr. Satur.
V. 2. 1.

بعد وفاة والد هذه الزوجة • على كل لقد شب
فرجيل فوجد أن أباه يمتلك أرضا ، وقد كانت
هذه الأرض سببا فى تدعيم علاقة فيرجيل بكثير من
رجال العصر •

ان شخصية كشخصية « فيرجيل » ، حظيت
بمثل ما حظى به من مجد وشهرة ، لم تكن لتترك
دون أن ينسج حول ميلادها الكثير من الروايات
والأساطير • تحكى احدى هذه الروايات أن والدة
« فيرجيل » رأت فى منامها ، وهو حامل ، أنها تلد
غصنا من الفار ، ما كاد يلمس الأرض حتى انغرس
فيها ونما وترعرع بسرعة عجيبة ، حتى تحول الى
شجرة يانعة تحمل مختلف الثمار والأزهار (٥) .
وتكمل هذه الرواية رواية أخرى تقول بأن والدة
« فيرجيل » ، بينما كانت تسير مع زوجها فى اليوم
التالى لرؤية الحلم ، جاءها المخاض فجأة ، فانتحت
جانبا من الطريق ووضعت وليدها فى أخدود (٦) .
وتروى رواية ثالثة بأنه طبقا للمقوس المتبعة ، قد
زرع فى مكان ميلاد « فيرجيل » غصنا من شجر
الحور ، وقد نما هذا الغصن بصورة عجيبة ، حتى
أصبح ارتفاعه يربو على أشجار الحور التى زرعت
منذ أمد بعيد ، وقد سميت هذه الشجرة « شجرة
فيرجيل » وكانت انشاء الحوامل يبجلنها ويتبركن
بها ويقرأون أمامها بعض الأدعية والصلوات (٧) .

وهناك رواية أخرى تقول ان « فيرجيل » ، عندما
أبصرت عيناه نور الدنيا ، لم يصرخ كما يصرخ
الأطفال عادة ساعة ميلادهم ، بل كانت تتجلى
على وجه نظرة وضاعة لطيفة توحى بالأمل المعقود

(٥) انظر :
Donatus, in Brummer, op. cit. p. 1

(٦) نفس المرجع ص ٢ •

(٧) نفس المرجع السابق ص ٢ •

على مصير هذا الطفل (١) . وسواء صحت هذه الروايات أم كانت من نسج الخيال ، فهي تدل دلالة واضحة على مقدار ما كان يحظى به الشاعر من اعزاز وتقدير .

لقد نشأ « فيرجيل » وتربى في بيئة زراعية بين المراعى والأحراش (٢) . وقد ظهر أثر هذا بوضوح في مواضيع كثيرة من أعماله ، وعلى الأخص الرعويات والزراعات . وقد وافقت العشرون سنة الأولى من حياة « فيرجيل » تلك الفترة الخطيرة من تاريخ روما ، أعنى فترة الحروب الأهلية الأولى التي اندلع ليهيها بين حزبي « ماريوس » و « سولا » ، وكذلك النضال الرهيب بين « قيصر » و « پومبي » . وعندما كان « فيرجيل » صييا في الحادية عشرة من عمره جاء « قيصر » ليحكم الولاية التي تضم « جاليا كيساب لينا » ، حيث تعود « قيصر » أن يمضى فترة الشتاء وقد انضمت هذه الولاية الى « قيصر » ، أثناء نضاله مع « پومبي » : ومن المؤكد أن « فيرجيل » قد وقع تحت تأثير سحر تلك الأسرة العظيمة ، أسرة يوليوس قيصر ، التي أشاد فيرجيل بأمجادها في أخد ملحة كتبت باللاتينية ، أعنى « الانيادة » (٣) ويبدو أن والد « فيرجيل » لم يدخر وسعا في سبيل تعليم ولده ، كأحسن ما يتعلم أبناء طبقة النبلاء . فبعد أن أتم « فيرجيل » مرحلة التعليم الأولى في قريته ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، اخذه أبوه الى « كريمونا » (Cremona)

ليتلقى ما يعادل مرحلة التعليم الثانوى عند مدرس الأدب « grammaticus » ، حيث تمكن من دراسة الأدب والشعر اللاتينى دراسة مستفيضة ابتداء من « انيوس » الى « كاتولوس » ؛ وقد مكث في « كريمونا » حتى بلغ السادسة عشرة من عمره ، وارتدى زى الرجال « toga virilis » ثم رحل الى « ميلان » ، عاصمة الولاية في ذلك الوقت ، طلبا في المزيد من العلم ، حيث تعلم اليونانية على يد من يدعى « بارثينيوس البيثينى » (Parthenius of Bithynia) وقد ساعده ذلك على قراءة روائع الأدب الاغريقى في لغتها الأصلية ، وبخاصة « هومر » ، « وهيسود » ، و « نيوكريتوس » ، و « أبولونيوس الرودى » ، الذين كان لهم أكبر الأثر على شعره . ويبدو أن « فيرجيل » لم يجد في « ميلان » ما يشبع نهمه في تلقى العلم ، لذلك فانه لا يمكث بها الا فترة قصيرة لا تزيد عن السنتين ، ارتحل بعدها الى روما ، التي كانت تعج في ذلك الوقت بالأستاذة من كل علم وفن ، لينهل من علمهم وأدبهم .

كان على أى فتى طموح أن يختار بين احدى المهنتين الأساسيتين في ذلك الوقت العسكرية أو المدنية . وقد اختار « فيرجيل » ، لرقته وضعف صحته ، المهنة الثانية . ومن ثم فقد كرس جهده في بادىء الأمر للتدريب على الخطابة ، ليصل الى ما وصل اليه « شيشرون » من بلاغة وفصاحة رفعته الى قمة المجد والشهرة . وعلى الرغم من أن « فيرجيل » قد تلقى تعليمه وتدريبه على يد واحد من أفضل أساتذة العصر ، أعنى « ابيديوس - Epidius » ، حيث كان يرافق « فيرجيل »

(١) نفس المرجع السابق ص ٢ .

(٢) قارن : Macr. Satur. V. 2. 1. ... 'rusticis parentibus nato inter silvas et frutices educto'

(٣) قارن :

Wikins, op. cit. pp. 78-79.

فى الدراسة « قيصر أوغسطس » نفسه ^(١) ، الا أنه لم يحرز أى تقدم ملحوظ فى هذا الميدان ، فلم يترافع أمام القضاء الا مرة واحدة لم تتكرر . ويبدو أن حياة الطيبى وخجله ورقته كانت عقبة كأداء تسد عليه هذا السيل . وعلى كل فاننا نجد آثار هذا التدريب على الخطابه فى خطبه التى جاءت فى « الأنيادة » ، كما نجد أيضا ، وعلى الأخص فى الكتاب الرابع من الأنيادة » ، آثار واضحة لتلك المحسنات البلاغية ، التى تركت أثرا عميقا على الادب فى القرن التالى . ومن ثم فقد ترك « فيرجيل » هذا الميدان عن طيب خاطر ، واتجه لدراسة الفلسفة ؛ وكان أستاذه الأول فى هذا الاتجاه الفيلسوف الأبيقورى المعروف « سيرو - Siro » . ^(٢)

ويبدو أن « فيرجيل » قد درس أيضا الطب والعلوم الرياضية بما فى ذلك الفلك ، فان سعة اطلاعه تبدو جليلة واضحة خلال أعماله ، حتى لقد استحق بجدارة لقب « العليم - doctus » . ذلك اللقب الذى أطلقه عليه كل شعراء عصره ^(٣) . وفى الجزء الثانى من « الزراعات » فقرة (٤٧٥ - ٤٩٢) يتجلى فيها إعجاب « فيرجيل » الشديد بدراسة العلم والفلسفة ، فهو يقول فى ختام هذه الفقرة : (٤٩٠ - ٤٩٢)

(١) أنظر : Probus, II 6-7: 'Ut primum se contum Romae, studit apud Epidium oratorem cum Caesare Augusto.' Cited in Brummer, op. cit. p. 67.

(٢) قارن : Catalept., 5, if genuine of Vergil, (nos ad beatas vela mittimus portus/, magni pententes docta dicta sironis, vitam ab omni vindicabimus cura) cited in app. Verg. of O. Ribbeck, 2nd. ed. 1895.

(٣) أنظر : Ellis, T.E. Page, Aen. VI intr. p. V. وقارن ، Catalept, 35.

« سعيد من استطاع أن يعرف علة طبيعة الأشياء ، وطرح تحت قدميه كل المخاوف والقدر المحتوم وضجيج أخيرىون الشبره » .

ويعد أن أتى « فيرجيل » تعليمه ، عاد الى مزرعة أبيه . وقد مكنته طبيعته ، التى يغلب عليها الخجل والحياء ، أن يعتزل الناس ويعكف على الاطلاع ومحاولة قرض الشعر . ومن المحتمل أن تكون بعض القصائد القصيرة ، التى ينسبها البعض الى « فيرجيل » مثل Culex, Dirale, Moretum. ثمار تلك الفترة المبكرة من حياة الشاعر الأدبية .

وعلى أية حال ، فان أول معلومات أكيدة تصلنا عن شعر « فيرجيل » يرجع تاريخها الى حوالى عام ٤٢ ق م ، بعد هزيمة قتله « قيصر » فى معركة « فيلبى » وانتقال العالم الرومانى الى يد الحكومة الثلاثية المؤلفة من «أوكتافيوس» ، «انطونيوس» ، «ليبيدوس» . لقد وعد المنتصرون جنودهم ^(٤) بأرض كثير من المدن الايطالية ، من بينها بلدة « كريمونا » والحدود المجاورة لها بما فى ذلك بلدة « ماتتوا » ^(٥) ومن الطبيعى أن تقع مزرعة والد « فيرجيل » تحت طائلة هذه المصادرات . ولكن الشاعر الشاب « فيرجيل » ، كان قد حظى برضاء « جايوس أسينيوس بوليو ولاية « جاليا كيسا لينا » ، الذى كان يحكم

(٤) قارن الدعويات ١ ، ٧١ : «Inpius haec tam culta novalia miles habebit?

وأنظر أيضا الرعوية ٩ ، ٢ - ٦ .

(٥) أنظر الرعوية ٩ ، ٢٧ - ٢٨ : Vare, Tuum nomen, superet modo Mantua nobis, Mantua vae miserae nimium Vicina Cremonae.

الزراعات^(٥)، التي استغرقت ما يقرب من سبع سنوات^(٦) (من ٣٧ - ٣٠ ق.م.). وقد أصبح واحد ممن يتمتعون بعطف ورعاية وصداقة امبراطور المستقبل؛ كما أن الرعويات، التي كتبها في ثلاث سنوات تبدأ من حوالي ٤٢ ق.م. قد أكسبته بعض الشهرة، ولفتت إليه نظر «مايكناس» *Maecenas*، الراعي الأول للفنون والآداب في ذلك الوقت ووزير «أوغسطس»؛ وكان يجتمع في قصره على تل «اسكويليني» جماعة من الأدباء الممتازين. وقد أصبح «فيرجيل» أحد هذه الجماعة، بعد أن قدمه «بوليو» إلى «مايكناس». «فيرجيل» هو بلا شك الذي قدم بدوره الشاعر «هوراس» إلى ذلك الوزير^(٧). وقد ظل «هوراس» يحتفظ له بهذا الجميل، الذي وطد العلاقة بين الشعارين، حتى لقد كان «هوراس» يعتبر «فيرجيل» نصف روحه *animae dimidium*^(٨)، ويضعه في منزلة أعز الأصدقاء، كواحد من تلك الأرواح التي لم تر الدنيا مثلها في النقاء والطهارة^(٩).

لقد أمضى «فيرجيل» سبع سنوات، تنتهى عام ٣٠ ق.م.، في كتابة «الزراعات»، ثم كرس البقية الباقية من حياته في كتابة «الانباة»، وقد استغرق ذلك ما يقرب من احدى عشر سنة. ولكن «فيرجيل» لم يشأ نشر عمله الا بعد تنقيحه ومراجعته. ثم اعتزم القيام برحلة الى الشرق

٤٢ ق.م.، وكان هؤلاء الآخرين أدبيا وشاعرا^(١) كما حظى أيضا برضاء خليفته في الحكم وهو «ألفينوس فاروس» *Alfenus Varus*^(٢)، وكان من أعضاء لجنة توزيع الأراضي على الجنود، فالتجأ إليها طالبا المعونة، فنصحناه بأن يلجأ إلى قيصر الشاب في روما. وفعلا يمهّد له «بوليو» سبيل اللقاء باوكتافيوس^(٣)، الأمر الذي ساعده في الحصول على قرار باسترداد مزرعة ابيه. وقد عبر «فيرجيل» عن امتنانه وعرفانه بالجميل للمحاكم الشاب «أوكتافيوس» وذلك في رعويته الأولى: (٦ - ١٠)

«أى ميليويوس، ان من منحني هذه النعم لهو اله، وسيظل في نظري الها دائما، ذلك الذي سيروى مذبحة دائما دم حمل وديع من حظائرنا. فهو الذي سمح لى بأن أعزف على ناي الخشما طاب لى من ألحان».

وذلك ردا على قرار «أوكتافيوس» بإعادة الأرض إليه، ذلك القرار الذي جاء في نفس الرعوية على لسان «فيرجيل» كما يلي:

«اطلقوا الأبقار في البرعى، كما كنتم تفعلون من قبل، أيها الغلمان، وارسلوا الثيران»^(٤) ومنذ ذلك الوقت عاش «فيرجيل» بين روم و نابلي، حيث نظم فيها كتبه الأربعة عن

(١) قارن هوراس، الاغانى، ٢٤١، وقد تغنى فيرجيل بالثناء عليه في الرعوية الرابعة، كما اهدى اليه الرعويات المبكرة. قارن الرعوية ٨، ١١.

(٢) وقد تغنى فيرجيل بالثناء عليه في الرعوية السادسة.

(٣) أنظر Schol. Dan. on Ecl. 9. 10 'carmina quibus sibi Pollionem intercessorem apud Augustum concilianerat. Cited in T.E. Page, Bucolics, intr. p. Xlii, n. 1.

(٤) الرعوية الاولى، ٤٥: 'pascite ut ante boves, submitte turos'.

(٥) قارن الزراعات، ٤، ٥٦٢ - ٥٦٤.

(٦) أنظر

Donatus, vit. 25, 'Bucolica Triennio, Georgica VII, Aeneida xi perfecit annis).

(٧) أنظر هوراس، الهجائيات، ١، ٦، ٥٤، قارن Duff, op. cit. p. 319.

(٨) أنظر هوراس الاغانى ١، ٣، ٨.

(٩) أنظر هوراس، الهجائيات ١، ٥، ٤.

لزيارة بعض المعالم التي ورد ذكرها في عمله .
وأثناء زيارته لبلاد اليونان ، التقى في « أثينا »
بالامبراطور « اوجسطس » ، الذي كان عائدا من
« ساموس » ، وصحبه في طريق عودته الى أرض
الوطن ، ولكن صحة « فيرجيل » ، التي كانت
غاية في الضعف ، قد تحطمت ، بسبب تعرضه
للحر الشديد في « ميجارا » ، ولم يكد يصل الى
« ايطاليا » حتى دهمه الموت في « برونديسيوم »
في العشرين من سبتمبر عام ١٩ ق م . ، ونقل
جثمانه الى « نابلي » ودفن في قبر علي الطريق
المؤدية الى « بوتولي - Puteoli » (١) ، وقد أصبح
هذا القبر في العصور التالية محل تبجيل أسطوري
(٢) .

والنقش الذي يقال انه كان محفورا على قبره ،
والذي نسبته البعض خطأ الى « فيرجيل » نفسه (٣) ،
به اشارة الى محل ميلاده ومماته ودفنه والى
موضوعات أعماله الثلاثة العظيمة :

لقد انجبتني ماتوا ، واحتطفتني كالابريا ،
وتمسك بي الآن بارثينوبي (نابلي) : وقد تغيت
بالمراعى والريف والقواد (٤) .

وقبل أن نعرض أعمال « فيرجيل » ، يجب أن
تذكر أن الشعر اللاتيني ، باستثناء الهجاء فيما
يقال ، قد نهض أساسا على محاكاة النماذج
الاغريقية بوجه عام . وكان قراء الدوائر المثقفة ،

التي كان « فيرجيل » يكتب لها ، يتحولون عن
كل قصيدة يعتمد كاتبها على فطرته فحسب ،
ويرحبون باعادة انتاج الروائع الاغريقية . وقد
وضع « هوراس » للشعراء القاعدة التي تحقق
لهم النجاح في هذا المضمار :

« ادرسوا النماذج الاغريقية ، وتأملوها آناء
الليل وأطراف النهار » (٥) .

ان « الرعوبات » تمثل أول أشعار مؤكدة
للشاعر « فيرجيل » ، وهي تتألف من عشرة قصائد
قصيرة ، تسمى عادة Boukolika — Bucolica
يطلق عليها أحيانا اسم Eclogae بمعنى مختارات .
كان شعر مدرسة الاسكندرية أحب ألوان الشعر
دراسة في ذلك الوقت من تاريخ الأدب اللاتيني (٦) ،
وكانت رعويات « ثيوكريتوس — Theocritus »

التي يطلق عليها اسم « ايديليا — Idyllia »
كثير أشعار مدرسة الاسكندرية
سحرا وجاذبية . وكلمة « ايديليا » معناها « صورة
قصيرة » ، تصور في معظمها حياة الرعاة وحياة
الريف ، وغالبا ماتأخذ شكل الحوار . ويرجع
أصلها في الغالب الى حب الموسيقى والولع
بالاغاني ، اللذين ساعد على تطورهما سهولة
وبساطة الحياة الرعوية في الجنوب ، مما يشجع جوا
من البهجة والسعادة (٧) ، كما يرجع أيضا الى

(٥) هوراس ، فن الشعر ، ٢٦٨ :
... Vos exemplaria Graeca nocturna versate
manu, versate diurna !

ويؤكد لنا سنيكا الأكبر (Suas. 3)

أن فيرجيل قد أخذ عن الاغريق

(٦) أنظر

Jebb, Primer of Greek Literature, part III,
ch. 1.

(٧) قارن لوكريتيوس ، عن طبيعة الاشياء ، ٥ ، ١٢٧٩

وما بعده .

(١) أنظر
Cyril Bailey, Oxf. Class. Dict. p. 949.

(٢) قارن بلييني الاصغر ، الرسائل ٣ ، ٧ .

(٣) قارن :

Duff, op. cit. p. 320.

(٤) أنظر المرجع السابق ص ٣٢٠ :

Manuta me genuit, Calabri rapuere, tente
nunc

Parthenope : Cecini pascua, rura, duces.

« لوكريتيوس » بتعبيراته وأنغامه • وها هي بعض آيات هذه الانشودة (٥) :

فقد أخذ ينشد كيف أن العناصر الأولى للأرض والهواء والبحر والماء النار قد التقت معاً في القضاء العظيم ، وكيف نشأت من هذه العناصر الأولى بداية كل الأشياء ، وكيف تشكلت الكرة الأرضية الرقيقة نفسها ، ثم كيف بدأت تتصلب وتحتجز البحر في الأعماق ، وتكون أشكال الأشياء رويداً رويداً ، وكيف أن الأرض تذهل الآن من الشمس الجديدة التي تشرق من عل ، وكيف يسقط المطر من السحب المحلقة عالياً ؛ ومتى تبدأ الغابات في الظهور لأول مرة ، ومتى تتجول الحيوانات القليلة بين الجبال التي لا تعرفها • وبعد ذلك يشير إلى الصخور التي القتها بيرا ، وإلى ممالك ساتورنوس ، وإلى الطيور القوقازية ، وإلى سرقة بروميثيوس •

وفي هذا ما يدل على أن فيرجيل كان يرى إمكان قبول الأبحاث الفلسفية كموضوع لشعره بجانب الموضوعات الأسطورية • وعلى كل فانه يكاد يكون أمر مستحيلاً أن يحصى المرء جميع مصادر « فيرجيل » التي اعتمد عليها وسار على نهجها ، وقد لاحظ « ماكروبيوس » (٦) أن علم « فيرجيل » يميزه حياء نصف صامت وخفي يجعل من الصعب الاهتداء إلى منابع علمه •

ومهما قيل عن التناقض وغلبة الصنعة في الرعويات ، لا يستطيع أحد أن ينكر اخلاص هذه الأشعار في حبها للطبيعة واهتمامها بالجمال ،

عادة التنافس في الغناء وإلى الارتجال الذي كان شائعاً في الأعياد الريفية ، وعلى الاخص بين الدوريين ، الذين كانوا يشكلون جزء كبيراً من المستعمرات في صقلية ، حيث أمضى « ثيوكريتوس » معظم حياته ، رغم أنه ولد في جزيرة كوس - Cos » وأمضى بعض الوقت في الاسكندرية (١) .

ورغم أن رعويات « فيرجيل » ، من ناحية الشكل ، تعتبر محاكاة لرعويات « ثيوكريتوس » ، إلا أنها تختلف عنها في الجوهر • فرعويات « ثيوكريتوس » مرتبطة بالطبيعة الحقة ، فالمنظر واقعي ، والرعاة حقيقيون من لحم ودم يتدفقون حيوية ، أما رعويات « فيرجيل » فيغلب عليها طابع الصنعة والفن ، فهي صور مثالية للحياة الريفية ، كتبت لتسبب النوق الرفيع لقراء عاصمة العالم المثقفين (٢) . وقد لاحظ « هوراس » (٣) أن أهم ما يميز هذه الرعويات هو الرقة والرشاقة Rutuli ataque facetum » ولكن لو تأملنا رعويات

« فيرجيل » بامعان ، لأدركنا أن « ثيوكريتوس » لم يكن بأي حال النموذج الوحيد الذي احتذاه « فيرجيل » ، فمما لاشك فيه أن « فيرجيل » قد أحب « هيسود » وتأثر به حتى قبل أن يقدم على كتابة الزراعات ، كما أنه لابد وأن يكون قد وقع تحت تأثير شعراء روما السابقين عليه ، فبعض حركات عروضه تذكر المرء بكتاتولوس (٤) . وفي الرعوية السادسة المهداة إلى « فاروس » تبدأ أغنية « سيلينيوس » بقصة نشأة العالم على نهج

(١) انظر

T.E. Page, Virgil, Bucolics, inter. p. xviii

(٢) المرجع السابق ص ١٨ - ١٩

(٣) انظر هوراس ، الهجائيات ١٠١ ، ١٠٢

(٤) قارن

(٥) الرعوية السادسة، ٣١ وما بعده ، قارن لوكريتيوس

عن طبيعة الأشياء ، ٥ ، ٢٣٥ وما بعده .

(٦) انظر ماكروبيوس ، ساتورناليا ، ١٨ في أوله، قارن

Duff, op. Cit. p. 323

Duff, op. Cit. p. 323

من اللغة اللاتينية أنعاما وإيقاعات رائعة لم يسمعها الرومان من قبل . ومن ثم فقد لاقت الرعويات نجاحا كبيرا بمجرد ظهورها ، حتى يقال انها كانت تلقى على المسرح بحماس عظيم^(٤) . وهذه الأشعار هي التي منحت فرصة الدخول في بلاط « أوكتافيوس » والحصول على رعاية « مايكيناس » ، ومكنته من احتلال مكانه اللائق به كشاعر للطبيعة والحياة الريفية . وليس معنى ذلك أن « فيرجيل » قد بلغ ذروة الكمال الفني في هذه الأشعار ، فمزال أمامه خطوات يخطوها نحو الكمال عندما يتناول موضوعات أسمى وأجل . وهذا ما نراه في عمله التالي « الزراعيات » .

و « الزراعيات » كما يدل عليه « Georgica » عبارة عن مقالة عن شئون الزراعة وما يتعلق بها . وقد كتبها « فيرجيل » تلبية لرغبة « مايكيناس »^(٥) ، كما أنها مهداة اليه . فمنذ نشر الرعويات وقد أصبح فيرجيل أحد رجال الأدب الذين تعتمد عليهم الدولة في الدعاية لمشروعاتها . وقد كان أحد المشروعات الهامة ، التي واجهت « أوكتافيوس » ووزير « مايكيناس » ، صد الخطر الداهم الذي يهدد إيطاليا ، أعني خطر إهمال الأراضي والهجرة من الأرياف . فليس بعجيب إذن ان يشير « مايكيناس » على « فيرجيل » بكتابة هذه المقالة عن « الزراعيات » كوسيلة من وسائل الدعاية بقلم شاعر أثبت مقدرة فائقة على التعبير عن مثل هذه الأمور في الرعويات ، وذلك بمهارة لم يسبق لها نظير .

وتوفيقها في توصيل هذه التأثيرات الى نفس القارئ . فالشاعر يجعل أهل الريف يتغنون كما لو يتغن أهل ريف من قبل ؛ ففي « أركاديا » ، التي صورها فيرجيل على نهج « ثيوكرينوس » ، وان كان قد زينها بحيث امتزجت فيها المناظر الايطالية بالمناظر الصقلية في تناقض يشبه تناقض الأحلام ، يشدو رعاة مثاليون متعنين بحبهم لراعيات مثاليات ، ذاكرين آمالهم وأحوال يأسهم ، وهم يتبارون على نهج لا يمثيل له بأبيات ينشدها كل بدوره^(٦) . فهنا « أركاديا » ليست مقدمة للتحليل بل للمتعة والتذوق : قطعة من أرض الجنوب ذي الشمس المشرقة والأشجار المورقة والظلال الوارفة ، حيث يسير الناس الهوينى بين المراعى والقطعان والحشائش والزهور والتلال والكهوف . وحتى عندما تسمع أصداء الحرب والمصادرات التي نجمت عنها ، فانك تحس أن موسيقى « فيرجيل » قد طغت عليها ، فأين أحدهم على مصادرة أرضه ، يقابله من ناحية أخرى تبجيل المعترف بالجميل لأوكتافيوس الإله الذي يمنح السلام^(٧) وان الرعويات مليئة بتلك اللمسات التي تكشف عن شعور رومانيكي نحو الطبيعة والهرب من حضارة المدينة^(٨) .

وعلى كل فان رعويات « فيرجيل » كانت شيئا جديدا على الرومان ، فالى جانب جمالها ومواطن سحرها ، كانت متقنة من الناحية الفنية ، فقد نجح « فيرجيل » فيما فشل فيه غيره ممن سبقوه ، فخلق

(١) أنظر الرعوية السابعة ، قارن

Duff, op. Cit. p. 323

(٢) أنظر الرعوية الاولى

(٣) أنظر على الاختصار الرعوية الاولى ٥١ وما بعده ، الرعوية الخامسة ٤٥ وما بعده ، ٨١ وما بعده ، الرعوية الثامنة ٣٧ وما بعده .

(٤) قارن تاكيوس ، محاوراة حول الخطباء ، ١٣ ، ٦

٨ -

(٥) الزراعيات ، ٣ ، ٤١-٤٢ :

... tua, Maecenas, haud mollia iussa:
te sine nil altum mens inchoat.»

تتألف «الزراعات» من أربعة كتب تحتوي في جملتها على ٢١٨٨ بيتا . وإن أهم ما يميز «الزراعات» هو احكام صقلها ، فقد كتبت على مهل وبغاية فائقة ؛ فلو سلمنا بأنها كتبت فيما يقرب من سبع سنوات ، لكان متوسط ما كتبت في اليوم الواحد أقل من بيت واحد . ومن ثم فقد صقل كل بيت صقلا تاما ، أو على حد قول «فيرجيل» نفسه فيما يقال «كان يلمس أيبانه ليعطيها شكلا كما تفعل الدبة بأولادها» (١) ولذلك فإن الزراعات تعتبر أحسن ما أنتج «فيرجيل» من ناحية المهارة الفنية ، بل أروع ما كتب باللاتينية في الشعر التعليمي ، لا يدانيها الا عمل «لوكرتيوس» المعروف باسم De Rerum Natura أي «عن طبيعة الأشياء» .

ويمالج الكتاب الأول من «الزراعات» موضوع زراعة المحاصيل والعلامات الدالة على تقلبات الجو ؛ ويتحدث الثاني عن زراعة الأشجار لا سيما أشجار الكروم والزيتون ؛ ويناقش الثالث موضوع تربية الماشية ؛ والرابع يعرض موضوع تربية النحل ، الذي يبدو أنه كانت له أهمية أكبر مما له الآن ، باعتبار أن عسل النحل كان المصدر الوحيد للحصول على مادة السكر ، ويختتم فيرجيل هذا الموضوع بمشهد أسطوري يحتل ما يقرب من مائتين وخمسين بيتا (٥١٥ - ٥٥٨) يحكى فيه «فيرجيل» كيف أن الراعي «أريستايوس» كان السبب في موت «يورديكي»

(١) أنظر جيلبيوس ، الليالي الابيكية ، ١٧ ، ١٠ ، ٢ ، 'parere se versus more atque ritu ursino'.

فان دوناتوس ، حياة فيرجيل ٢٢ : 'Carmen se more parere dicens et lambendo effingere'.

Duff, op. cit., p. 320

وقارن :

زوجة «أورفيوس» ، ومن ثم فقد غضبت عليه أخواتها عرائس الغاب وانتقمن منه بأن دمرن جميع خلایا نحلها ، فذهب الى أمه «كيريني» يستشيرها في هذا الأمر ، فنصحته بأن يذهب الى «برويتوس» فعنده الخبر اليقين ، فيكشف له هذا عن سبب ما نزل به من دمار ، ويطلب منه أن يعمل على تهدئة عرائس الغاب بتقديم بعض الثيران كأضحيات ، وقد خرجت من جيف هذه الثيران أسراب جديدة من النحل .

ان عملا كهذا ، كان من الممكن ، في يد شاعر آخر غير «فيرجيل» ، أن يتحول الى قصيدة تفيض بالمديح والثناء على السياسة الزراعية للدولة . أما «فيرجيل» فعلى الرغم من أنه أثنى على «أكتافوس» وسياسته الزراعية أكثر من مرة (٢) ، الا أنه خصص كل العمل لوصف الأمور الزراعية ، كما يراها هو باعتباره أحد الزراع ، الذين يحبون الحياة الريفية ويعرفون كل ما فيها من حلاوة ومرارة .

والمصدر الوحيد الذي يعترف «فيرجيل» بمحاكاته هو «هيسود» «شاعر أسكرا» المعروف ، اذ يقول : «انى أتنفى بشعر أسكرا في البلدان الرومانية (٣) . وعمل «هيسود» ، الذي يقال ان «فيرجيل» قد سار على نهجه ، هو «الأعمال والأيام Erga Kai Hemera ، وهو عبارة عن مجموعة من الحكم والنصائح والارشادات

(٢) أنظر على الاخص الزراعات ١ ، ٤٩٨ ، وما بعده وهي دعوة خالصة لالاه روما أن تبقى على أوكتافوس ليعمل على اقتاد الدولة من الدمار ، وانظر أيضا الزراعات ١٠٣ ، وما بعده .

(٣) الزراعات ٢ ، ١٧٦ : 'Ascraeum cano Romana per oppida carmen'

وضعت في قالب شعري ، ومثل هذا النوع كان يطلق عليه اسم « الشعر التعليمي » ، لأن غرضه الأساسي هو التثقيف والتثذيب ، فلم تكن الكتابة معروفة في العصور القديمة أو كانت قليلة الاستعمال ، ومن ثم فإن هذه الحكم والنصائح والارشادات غالبا ما كانت توضع في قالب شعري ، والسبب في ذلك بسيط معروف ، وهو أنها ، وهي في القالب الشعري أقل تعرضا للتحريف والتغيير والتبديل ، كما أنها أسهل في الحفظ (١) . وحتى عندما أصبح الثبر الفنى معروفا وشائعا ، فإن بعض الفلاسفة كانوا يحاولون جعل موضوعاتهم أكثر تشويقا بوضعها في القالب الشعري (٢) . ولكن صلة « فيرجيل » بعمل « هيسود » تقل كثيرا عن صلته برعويات « نيوكريتوس » . ومن الواضح أن مصادر فيرجيل كثيرة متعددة ؛ فمن « نيكاندروس » استعار « فيرجيل » الاسم « Georgica » وقد فقدت ولا نعرف الى أى مدى تأثر بها « فيرجيل » ، ومن الممكن أن يكون الكتاب الرابع لزراعيات « فيرجيل » محاكاة لعمل آخر لنفس الكاتب يسمى « تربية النحل - Melissurgica » ، وقد فقد هذا العمل أيضا ، ومما يدل على أن « فيرجيل » كان ينقل عن هذا الكاتب أن وصف « فيرجيل » للشعبان (٣) يشبه ما جاء عند « نيكاندروس » في عمله الذي وصلنا كاملا وهو « الترياق » Theriaca . ولا بد وأن يكون « فيرجيل » قد رجع الى

« ايراتوسينيس » عند حديثه عن الأجرام السماوية (٤) ، والى « أراتوس » عندما تعرض للعلامات الدالة على تقلبات الجو (٥) . وقبل أن يبدأ « فيرجيل » الكتابة بوقت قصير ، كان « لوكريتيوس » قد وضع فلسفة « أبيقور » فى عمله الشعرى المعروف باسم De Rerum Natura ومما لا شك فيه أن تلك القصيدة الرائعة كانت فى ذهن « فيرجيل » وهويكتب « الزراعيات » (٦) ومع ذلك فان « فيرجيل » يختلف اختلافا بينا عن كل من أخذ عنه وتأثر به ، فقد كتب « هيسود » شعرا تعليميا ، لأنه كان مفيدا على أيامه فائدة عملية ، وكتب فيه « لوكريتيوس » لأنه وجد فيه وسيلة جذابة لجنى ثمرة ما اعتقد أنه الحقيقة الفلسفية ، أما غرض « فيرجيل » فلم يكن التثقيف بقدر الامتاع ؛ حقيقة ان ما كتبه « فيرجيل » هو نتاج عقل راجح ، حتى لقد استشهد به بعض العلماء مثل « بلىنى الأكبر » فى تاريخه الطبيعى و « كولومبلا » فى عمله « عن الريف » « De Re Rustica » ، وان حبه للزراعة وللريف لهو حب صادق بلا أدنى جدال ، ولكنه كان يكتب ليرضى الذوق الفنى والأدبى لقرائه ، بالاضافة الى غرضه العملى . ولذلك فقد نشر « فيرجيل » خلال الموضوعات العلمية كثيرا من العناصر القومية والدينية والأسطورية والخيالية ، ليزين بها التفاصيل الزراعية التى قد لا تثير اهتماما ، حتى

لقد استطاع «فيرجيل» أن يخلق شعرا من أشياء لا تمكن بها أدنى شاعرية ، وقد عبر «فيرجيل» عن عدم ثقته في نفسه وهو يتعرض لمثل هذه الموضوعات التافهة (١) .

نأتى الآن الى بيت القصيد فى هذا المقال ، أعنى «الانيادة» . لقد بدأ «فيرجيل» فى كتابتها حوالى عام ٣٠ ق.م وهو فى سن الأربعين ، وقد عكف على كتابتها الاحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته ، ومع ذلك فانه لم ينته من تنقيحها ، بحيث يرضى عن نشرها ، فقد كان بها كثير من أنصاف الأبيات التى لم تكتمل ، حتى لقد أراد «فيرجيل» أن يقوم بتدمير هذا العمل الضخم حين وافته المنية ، لولا أن تدخل الامبراطور «أوغسطس» وعمل على انقاذه، فأمر «فاريوس» و «توكا» أن يقوموا بنشر «الانيادة» على أن يحذفوا الزيادات دون أن يضيفا شيئا من عندهما . وعلى هذا ، وبعد مرور عامين على وفاة «فيرجيل» أى حوالى عام ١٧ ق.م ، طلعت على العالم ملحمة «فيرجيل» الخالدة «الانيادة» التى تنبأ لها «برويرتيوس» بأنها ستكون «شيئا ما أعظم من الانيادة» . (٢)

ويبدو أن «الانيادة» لم تكن أول محاولة يقوم بها «فيرجيل» لكتابه الملاحم ، فقد سبقها بعض المحاولات التى لم يكتب لها النجاح (٣) . ومع ذلك فان «فيرجيل» لم يأس ، فقد أعلن فى الأبيات الافتتاحية من الجزء الثالث للزراعات عن

عزيمة على محاولة الكتابة فى موضوع أكثر سموا ، حيث يقدم ملحمة عظيمة يكون «قيصر أوغسطس» الشخصية الرئيسية بها (٤) . وقد وفق «فيرجيل» أكبر توفيق أن اختار قصة «أينياس» لتكون الهيكل الذى يبنى عليه ملحمة ، ولم يحاول أن يكتب ملحمة تاريخية دقيقة ، فلم تكن الحروب ، التى شت بين قتلة قيصر والحكومة الثلاثية ، لتمده بالمادة الغنية التى أمدته بها قصة «أينياس» ، فهذا الاختيار ممكن من مزج الحقيقة التاريخية بالخيال الأسطورى . ومن ثم جاءت «الانيادة» ملحمة قومية وطنية قصد بها ربط أصل الرومان ، وعلى الأخص الأسرة اليولية ، بالآلهة والأبطال العظام ، كما قصد بها أيضا ، ولو بطريق غير مباشر ، تمجيد كثير من عادات وطقوس الرومان ، وذلك بربطها بعادات وطقوس عصر الأبطال . ثم ان «أينياس» وأتباعه ، بأصرارهم على احراز النجاح ، رغم اعتمادهم على الآلهة فى حل جميع الصعوبات والمخاطر التى واجهتهم ، يمثلون خير تمثيل تلك الفضائل والمميزات التى عملت ببطء على تأسيس الامبراطورية الرومانية وتدعيمها ، بينما «أينياس» نفسه ، باعتباره الحاكم الأبوى لشعبه : قائدهم فى المعركة ، وواضح تشريعاتهم فى وقت السلم ، وكاينهم الأعظم فى كل ما يتعلق بالشئون الروحية

(٣) قارن الرعويات ٣٦ - ٥ :

'Cum canerem reges et proelia, Cynthius aurem/vellit et admonuit: pastorem, Tityre, pingues/pascere oportet oves, deductum dicere carmen.'

قارن أيضا دوناتوس ، حياة فيرجيل ، ١٩ :

'Cum res Romanas incohasset, offensus materia, ad Bucolica transiit.'

(٤) أنظر على الأخص الزراعات ٣ ، ٤٦ - ٤٨ :
Mos tamen ardentis accingar dicere pugnas
Caesaris, et nomen fama tot ferre per annos.
Tithoni prima quot abest ab origine Caesar

(١) أنظر مثلا الزراعات ٣ ، ٢٨٩ - ٢٩٠ ، وهو مقدم

على موضوع الفقم والماعز ، وانظر أيضا الزراعات ٤ ، ٦٤ - ٧٠ ، عندما يتعرض لموضوع النحل

Duff, op. cit., p. 326 ff.

قارن

(٢) أنظر برويرتيوس ، ٣ ، ٢٦ ، ٦٥ :

'Cedite Romani scripores, cedite Grai,
Nescio quid maius nascitur Illade'

أتى من صلبه العنصر اللاتيني وسادة ألبا وروما
ذات الأسوار الشامخة .

وكما فعل « هومر » في « الأوديسا » ،
فعل « فيرجيل » أيضا في « الانياذة » ،
فلم يبدأ الأحداث منذ سقوط طردادة وبداية
مغامرات « أينياس - Aeneas » ، بل بدأها وقد
أوشك « أينياس » أن يصل الى غايته ، فقد كانت
إيطاليا على مرأى البصر ، لولا « جونو - Juno »
عدوة الطرواديين اللدودة ، منذ حكم «باريس»
بالتفاحة الذهبية لفينوس ؛ فقد كانت تعلم أن
نهاية قرطاجة ، وهى أحب مدينة لديها ، ستكون
على يد رجال من طروادة بعد أن يؤسسوا
لأنفسهم إمبراطورية أخرى جديدة أشد وأعظم .
ومن ثم فإن « جونو » قد استطاعت أن تستميل
« أيولوس - Aeolus » ، إله الرياح ، فيرسل
عاصفه هوجاء تعصف بأسطوله الذى جرفه التيار
قريبا من ساحل أفريقيا الخطر . ولكن
نيتونوس - Neptunus إله البحار أحس بالعاصفه ،
فأدركه برحمته ، فجعل المياه تهدأ والأمواج
تخلد الى السكون . لقد غمر اليم ثلاثا من سفن
« أينياس » ، ولكن البقية الباقية وصلت ساعة الى
مواقع مختلفة من الشاطئ . وفى اليوم التالى
توغل « أينياس » داخل البلاد ، يصحبه تابعه
المخلص « أخاتيس - Achates » ، حتى وصل الى
مدينة قرطاجة . وفى الطريق تقابله أمه الالهة
« فينوس - Venus » ، وكانت قد اطلعت من
« جوبيتر - Jupiter » على المصير الرائع الذى

والدينية ، يمثل بوضوح شخصية « أوغسطس »
مؤسس الدولة الجديدة (١) .

والانباذة تتألف من اثني عشر كتابا تحتوى
على ما يقرب من ٩٨٩٦ بيتا . فهمى عمل ضخيم
جدا ، حتى أن الإمبراطور قد علق عليه بأن
« فيرجيل » عندما بدأ هذا العمل ، كان ولا بد فى
حالة من حالات ذهاب العقل (٢) . تصف الكتب
الستة الأولى تجوال أينياس ومغامراته ، بينما
تصف الكتب الستة الثانية حروبه ومعاركه ؛
فكان الملحمة الرومانية اذن تمثل ملحمتى «هومر»
الأوديسا والانباذة ، كما أنها تسير على منوالهما
فى معظم أجزائها ، وإن كان هناك أيضا بعض
الأجزاء التى نسجت على منوال «الأرجونتيكا»
التي كتبها « أبو للونيوس الرودى » الشاعر
السكندرى المعروف الذى ازدهر فى الفترة ما بين
٢٢٢ ، ١٨١ ق م .

لقد افتتح فيرجيل ملحمة بالأبيات التالية: (٣)
انى اتغنى بالسلاح وبالرجل الذى قدر له أن
يكون أول من يأتى من شواطئ طردادة ويصل
الى إيطاليا وساحل لا فينيوم ، رغم أنه كتب عليه
أن يكون طريدا ؛ لقد قاسى ذلك الرجل وتعذب
فى البر والبحر بقوة من السماء ، وذلك ارضاء
لغضب جونو الذى لا يهدأ ولا يلين ؛ كما تحمل
الكثير فى المعارك الحربية ، قبل أن يتمكن من
تشيد مدينة وتدعيم آلهته فى افليم لايتوم ؛ وقد

(١) أنظر :

T.E. Page, Virgil, Aen. VI., Intr. p. xviii
Sellar's Virgil, p. 344

(٢) أنظر ماكروبيوس ، ساتورناليا ، ١ ، ٢٤ :

Tanta incohata res est ut
paene vitio mentis tantum opus ingressus
mihi videar, ...

Duff, op. cit. p. 321

خارن :

(٣) لقد لخصنا أسطورة تأسيس روما بشئ من التفصيل
فى مقال آخر بعنوان « الاساطير الرومانية » ، نشر فى نفس
هذه السلسلة ، العدد الثانى من المجلد السادس ، إبريل
عام ١٩٦٤ .

قدر لمدينة « روما » ، فتحبره بأن « ديدو Dido »
 هي حاكمة هذا الوطن الجديد ، فقد هربت من
 موطنها الأصلي « تيري » بعد مقتل زوجها السابق
 « سيخايوس - Sychaeus » . لقد استقبلت الملكة
 « ديدو » البطل « أينياس » أحسن استقبال وأكرمت
 وفادته ، وأرسلت « فينوس » « كيوييد - Cupido »
 لجعل « ديدو » تهيم غراما بحب « أينياس » ،
 وذلك بإيعاز من « جونو » ، التي كانت تهدف
 الى استبقاء « أينياس » بجوار « ديدو » وبذلك
 لا يتحقق له ما كان مقررا أن يقوم به . وأثناء
 الوليمة التي أقامتها « ديدو » في تلك الليلة
 اكراما لضيفها العزيز ، تطلب منه أن يصف لها
 سقوط طردادة ويحدثها عن جولاته ومغامراته .

وفي الكتاب الثاني يبدأ « أينياس » الرواية ،
 فيتحدث عن سقوط طردادة وقصه الحصان
 الخشبي ، وكيف أن أمه « فينوس » أمرته بالفرار
 بصحبه أبيه « أنخيسيس - Anchises » وابنه
 أسكانيوس ، وهو نفسه ايولوس - Iulus
 الذي قدر له أن يكون مؤسس الأسرة اليولية
 « gens Julia » ، أما زوجته « كريوسا - Creusa »
 فقد تاهت عنهم ، وبينما كان يبحث عنها ، يقابله
 شبحها ، فقد ماتت ، ويفضى اليه أنه قدر عليه
 أن يستقر في بلاد الغرب « Hesperia »

وفي الكتاب الثالث يتابع « أينياس » حديثه
 عن تجواله منذ ذلك اليوم بحثا عن الوطن الموعود ،
 فيصل أولا الى طراقيا ومنها الى كريت وبعدها الى
 بيروس ، ثم الى صقلية حيث مات أبوه
 « أنخيسيس » .

أما الكتاب الرابع فيعرض فيه « فيرجيل »
 علاقة « ديدو » مع « أينياس » . لقد مكث
 أينياس في « قرطاجة » عدة شهور تحوطه
 « ديدو » برعايتها وتغمره بحبها ؛ لقد باحت
 « ديدو » لأختها « آنا - Anna » بأنها
 على الرغم من قسمها بالآلا تتزوج أبدا
 بعد موت زوجها الراحل ، الا أنها
 تنهار يوما بعد يوم منذ وقعت تحت تأثير
 سحر « أينياس » . وذات يوم ، بينما كانا في
 رحله صيد ، أرغمتها ريح عاصفه أن يحميا
 في كهف ، حيث نسيا نفسيهما ، وشربا كأس
 الحب حتى الثمالة ، وحدث بينهما ماظنته « ديدو »
 زواجا . حدث كل هذا ابتدير من « فينوس »
 وموافق « جونو » على استمرار هذا الحب ، حتى
 تظل الالهتان في أمن وسلام ، ولكن « جوبيتير »
 يرسل رسوله « ميركوريوس - Mercurius »
 ليذكر « أينياس » بواجبه . يحاول أينياس
 أن يدبر أمر رحيله سرا ، حتى لا يؤلم « ديدو »
 ولكنها تكتشف الأمر ، فتتوسل اليه ألا يتركها
 وحيدة ، ولكن بلا جدوى ، فقد كان عليه أن
 ينفذ ما أمر به « جوبيتير » وفي لحظة من لحظات
 اليأس والألم ، التي تسببها لوعة الفراق ، تقتل
 ديدو نفسها .

ان مشهد اللقاء الأخير بين « ديدو » وأينياس
 من أروع ما كتب « فيرجيل » ، لهذا رأينا ترجمته
 كنموذج من « الايادة » ، رغم أن الترجمة بالطبع
 ستفقد المشهد الكثير من روعته وجمال أسلوبه : -

٣٠٤ وأخيرا هاجمت أينياس بهذه الكلمات :

« أيها الخائن ، أكنت تأمل أيضا أنك

تستطيع إخفاء مثل هذا الجرم الشنيع ، وترحل عن
عن بلادى سرا ؟ ألا يمكن لحبنا وأيدينا التي
تشابكت ذات يوم وديدو التي ستموت ميتة قاسية
أن تستبقيك ؟

٣١٥ أتفر مني؟ بحق هذه الدموع وبحق يملك،
اذ لم يبق لي شيء آخر غيرك ، يالى بائسه ، بحق
تعانقنا ، وبحق طقوس عرسنا التي ما تزال في
البداهه ، لو كنت أستحق منك أى معروف ، أو
كانت لمعزتي عندك أى تقدير ، أشفق على بيت
يتداعى ، واذا كان ما يزال للضراعة أى مكان
فانى أضرع اليك أن تطرد هذه الفكرة من
رأسك !

فبسببك كرهتني قبائل لبيبا وزعماء النوميدين،
وبسببك أصبح التيريون أعدائي ، وبسببك أيضا
ضاع حياتي وتحطمت سمعتي السابقة التي كنت
أستطيع بها فقط أن أصعد الى نجوم السماء .
عن تتركني عرضة للهلاك ، أيها ... الضيف ؟
اذ أن كلمة زوج أيضا قد تضاء لت وانكلمشت !
الى أين أمضى ؟

٣٢٧ لو أنى على الأقل أنجبت منك قبل
رحيلك ذرية ما ، لو كان لي أيناس صغير يلعب
في أبهاء قصرى ، فيجعلك على الأقل تعودانى في
المستقبل ، لما بدوت أمامك بأى حال على هذه
الصورة الذليلة الكسيرة ! »

كانت قد تكلمت ، بينما بقى الآخر محدفا
بعينه ، بناء على تعليمات جوبيتير ، وهو يخفى
بين جنبيه هما دفينا يصر على كبح جماحه ؛
وأخيرا يردردا مختصرا : « لن أنكر قط ، أيتها

الملكة ، أى شيء من أفضالك ، التي يمكنك أن
تعديها كثيرة جدا ؛ ولن أمل من تذكر الساء ،
طالما أنى ذاكر لنفسي ، وطالما أن أنفاس الحياة
تدب في هذه الأعضاء •

لتكن كلماتي قليلة لتناسب المقام • انى لم
أفكر قط في أن أحيط هذا الرحيل بطي من
الكتمان ، لا تتصورى هذا ، كما أنى لم أعرض
عليك أبدا مشاعل الزواج ، أو أتيت لمثل هذه
الارتباطات . لو أن الأقدار سمحت لي بأن أشكل
حياتي وفق هواي وأن أعمل على حل مشاكلي
بمحض رغبتى ورادتي ، لكان أول ما يخطي
باهتمامي مدينة طردادة ورفات أصدقائي الأعزاء،
ولظلت منازل بريام الشامخة قائمة، ولعملت يدي

هذه على استرداد برجام لأبنائها المنهزمين •
أما الآن فقد أمرني أبوللو سيد جرينيوم بأن
استحوذ على ايطاليا العظيمة ، ايطاليا مقر النبوءات
الليكية ؛ هذا هو حبي ، وهذا هو وطني • وأنت،
باعتبارك فينيقية ، لو أن قلاع قرطاجه ورؤية
المدينة اللبية قد استولت على نفسك فأى ضيم في
أن يستقر التيوكريون في أرض أو سونيا ؟ فمن
حقنا نحن أيضا أن نبحث عن ممالك خارجية •

ان طيف أبى انخيسيس ينذرني فى أحلامى
ويخيفنى بنظرته المضطربة ، كلما خيم الليل على
العالم بظلاله الندية ، وكلما طلعت النجوم
المتوهجة (كما ينذرني أيضا) الفتى أسكانيوس
والأضرار التي نزلت برأسه العزيز ، الذي
أوهمته بحكم هيسبيريا وبالأراضى الموعودة •
وان رسول السماء أيضا ، الذي أرسله زيوس
بنفسه ، وأستشهد على ذلك برأسينا ، قد حمل

الى تعليمات خلال الهواء المنطلق ؟ وقد رأيت
الاله في وضع النهار وهو يدخل الأسوار والتقطت
صوته بأذنى هاتين •

اقلعى عن احراق روحى وروحك بشكاياتك،
فانى لا أتعجب الى ايطاليا بمحض ارادتى • «
لقد كانت تحملق فيه شذرا طوال الوقت وهو
يتكلم على هذا النحو ، وهى تجيل بعينها هنا وهنا
وترمقه كله بنظرانها الصامته ، ثم انفجرت فى
اشتعال وقالت ما يلى :

« لم تكن أمك الهة ، ولم يكن داردانوس ،
أيها الغادر ، مؤسس عنصرك ، ولكنك جبلت من
صخر أصم ، اذ أنجبتك جبال القوقاز المريعة ،
وأرضعتك نمرات هيركانية •

فلما ذأخفى الحقيقة ؟ ولأى مصائب أجل
أدخر نفسى ؟ فهل يمكن أن أتصور ما هو أكثر
مهانة من ذلك ؟ والآن والآن فقط لا تنظر جنون
العظيمة ولا أبوها ساتورنوس الى هذه الأمور
بنظرة متعادلة •

ان الاخلاص لا أمان له على الاطلاق ؟ لقد
رحبت به عندما جاء الى شاطئى شريدا طريدا ،
وجعلته فى لحظة جنون شريكا لى فى الملك ؟
كما أنقذت أسطوله من الضياع وبحارته
من الموت •

هيلاه ! انى أتقلب محترقة بنار من الغيظ !
والآن فان ابوللو كاشف الغيب والنبوءات الليلية
ورسول السماء الذى أرسله زيوس بنفسه ،
يحمل الآن الأوامر الخطيرة خلال الهواء •

هذا بالطبع هو كل عمل آلهة السموات
العلى ! وهذا هو الهم الذى يقلق راحتهم ! انى
لن أستبقيك ولن أرد على ادعاءاتك ؟

اذهب لتحملك الرياح الى ايطاليا ، ولتبحث
عن الممالك وسط الأمواج •
وانى أتمنى فى الواقع أن تتجرع كأس
الشقاء وسط صخور البحر ،

آه لو تستطيع قوى الآلهة الطيبة ذلك ،
وأن تهتف باسم ديدو مرارا وتكرارا •
ورغم بعدى عنك ، فانى سوف أقتفى أثرك
بالنيران المريعة ، (نيران الهات الغضب)

وعندما ينزع الموت البارد الروح عن
اعضائى ، فان طيفى سيلاحقك فى
كل مكان ؛ أيها الناصر للجميل ، سوف ينزل بك
العقاب .

وسوف أسمع بذلك ، اذ ستصل الى
الرواية حتى ولو كنت فى أعماق العالم الآخر •
قالت هذه الكلمات وقطعت الحديث من
منتصفة ، وانطلقت بسرعة وكأن مرضا أصابها ،
ونأت بنفسها عن ناظره واندفعت الى الخارج ،
تاركة اياه وقد انعقد لسانه بخوف شديد ، وان
كان يود أن يقول الكثير •

أما هى فقد أنهضتها الوصيفات وحملن
اعضاءها المنهارة الى حجرتها المرمية وأرقدنها
على السرير •

ولكن أيناس الطيب ، رغم أنه يتوق الى
ان يخفف من آلامها بالنسرية عنها ، والى أن يزيح
عنها الهموم بكلماته ، فانه يشأ أنينا موجعا ،
ويضغط على قلبه المعذب بجبهه العظيم ،

٣٩٦ - ويعود الى الأسطول تنفيذنا لأمر
السماء •

ويبدو أن « فيرجيل » فى هذا الكتاب قد
تأثر برومانسية مدرسة الاسكندرية ، وخاصة

بمعل « أبولونيوس الرودى » المسمى « أرجوناوتيكاً » ، فـشخصية « ديدو » تشبه الى حد ما شخصية « ميديا » ، الا أن « ديدو » أقوى شخصية وأكثر رومانتيكية . وفى هذا الكتاب تظهر على « أينياس » للمرة الأولى والأخيرة مظاهر الضعف الانسانى ، ولكنه قد يبدو أيضا ، كما رأى البعض^(١) ، خسيسا جديرا بالازدراء ، فقد قبل حب « ديدو » ثم هجرها وتركها للئس والموت ، كما أن رده عليها فى الدفاع عن نفسه يغلب عليه طابع المنطق والبلاغة الباردتين . ولكن يجب أن نذكر دائما أن « اينياس » طبقا لتصوير « فيرجيل » له ، ليس لديه الا قدر ضئيل جدا من حرية الارادة ، وهجره « ديدو » أمر حتمى ، فهو تنفيذ لقوة ارادة السماء ، التى تتحكم فى آمال الناس ولا تعنى بأى شىء عارض يقف حائلا دون تحقيق ارادتها ؛ وان ما جرى لأنطونيوس وما جناه عليه حبه لكليوباترا كان صدها ما يزال يتردد فى أرجاء الامبراطورية ، عندما بدأ « فيرجيل » يكتب « الانايادة » ؛ وقد يكون غرض « فيرجيل » الاشارة الى أن حب أى امرأة ، مهما كانت ، يجب أن يعد أمرا تافها ، اذا قيس بمصالح الامبراطورية ، وكان حائلا أمام بناء مجدها العظيم .

وعلى كل فان هذا الكتاب يكشف عن حدة فى الطبع ، وتأجيج فى العاطفة ، وقدرة فائقة على خلق المواقف الدرامية ، وهى مزايا لم تكن ليظهر منها فى أعمال « فيرجيل » السابقة الالمحات خاطفة .

أما الكتاب الخامس فهو يمثل مرحلة انتقال تخفف من حدة مأبسة « ديدو » ، وتمهد لغموض وروعة الكتاب السادس ، كما أنه يقدم فرصة يحاكى فيها « فيرجيل » بعض المشاهد من « هومر » . فقد خصص معظم هذا الكتاب لعرض الألعاب التى أقامها « أينياس » ، بعد عودته الى صقلية ، احتفالا بمرور عام على وفاة أبيه ؛ وهى تشبه الى حد كبير الألعاب التى أقامها « أخيل » تكريما لموت صديقه « باتروكلوس » ، كما صورها « هومر » فى الكتاب الثالث والعشرين من « الانايادة » . وينتهى الكتاب بانقاذ بعض سفن « أينياس » بمعجزة من الحريق الذى اشتعل فى الأسطول بايعاز من « جونو » ، وبغرق بالينوروس Palinurus مرشد سفينة « أينياس » كفدية لسلامة الآخرين .

ويبدأ الكتاب السادس بوصول « أينياس » الى ساحل ايطاليا . وما ان يصل حتى يأخذ فى البحث عن العرافة « سيبلا - Sibylla » فى « كوماى - Cumae » . ان « فيرجيل » فى هذا الكتاب يبدو أكثر غنى وثراء وأكثر استقلالا وبعدا عن النقل والتقليد ، فقد جمع « فيرجيل » فى هذا الكتاب كل ثمار دراسته وثقافته واطلاعه عن الأساطير والنبوءات والطقوس وعن التاريخ والفلسفة ووضعها جميعا فى تلك الصورة الخيالية الرائعة التى صور بها رحلة « أينياس » الى العالم الآخر وكشف بها عن أحداث المستقبل ، هذا رغما من التشابه الظاهرى بين رحلة أينياس الى العالم الآخر فى انيادة « فيرجيل » ورحلة « أوديسيوس » فى الكتاب الحادى عشر من « أوديسا » هومر .

(١) أنظر :

T.E. Page, Virgil, Aen. VI intr. pp. XX-XXI.

ان الكتاب رائع وممتع • وان الصورة التي رسمها فيرجيل لنزول الوحي على العرافة لهى احدى الصور الجميلة التي جاءت فى هذا الكتاب

٤٥ - كانوا قد وصلوا الى الأعتاب ، عندما قالت العذراء :

« هذا وقت طلب الوحي ، الاله ، هاك الاله ! » وفجأة لم يبق لهذه المرأة، التى قالت مثل هذا الكلام أمام الأبواب ، نفس الملامح ، كما لم يبق لونها على حاله ، ولم يعد شعرها ممسطا ، بل أخذ صدرها يعلو ويهبط لاهثا ، وينتفخ قلبها بجنون وحشى، وهى تبدو وكأنها أكبر مما هى ، ولا تنطق بما هو آدمى ، فقد نَفث فيها الآن من قوة الاله القربية •

فهى تقول : « أى أينساس الطروادى ، أتأخر عن تقديم النذور والأدعية ، أتأخر ؟ فقبل ذلك لن تفتح الأبواب العظيمة لهذا المنزل الذى أصابته الدهشة . » ثم صمتت بعد أن قالت هذا الكلام •

لقد سرت فى عظام التيوكرين الجامدة رعدة باودة ،

ثم انهمر الملك بالدعوات من اعماق فؤاده:

« أيا فويوس ، يامن كنت تعطف دائما على الشدائد الثقالة التى حلت بطروادة، يا من وجهت سلاح باريس الدردانى ويده الى جسد سليل أياكوس، انى بإرشادك دخلت بحارا عديدة تحف بلادا عظيمة ، وقبائل الماسيلي القاصية ، والحقول التى تمتد أمام صخور سيرتيس ، وهانحن الآن فى النهاية تنسبت بشواطىء ايطاليا

التي تحاول الهرب منا ؛ وانى أدعو أن يكون خط طروادة قد تبعنا الى هذا الحد فقط •

٧٧ - ولكن الكاهنة ، ولم تعد تطيق الآن فويوس ، فانها تضطرب فى الكهف اضطرابا وحشيا ، بأمل أن تتمكن من اخراج الاله العظيم من صدرها • ولكن كلما ازداد اضطرابها ، كلما ازداد فيها المجنون انهاكا ، وقهر قلبها لمتوحش وشكلها قهرا •

وانفتحت الآن أبواب المنزل المائة الضخمة ، انفتحت من نفسها تحمل اجابات الكاهنة خلال الهواء :

« أنت يا من انتهيت أخيرا من أهوال البحر العظيمة ، ان أمورا أكثر خطورة تنتظر على البر ؛ سيصل الدردانيون الى مقاطعة لافنيوم ، اطرح هذا الهم جانبا عن قلبك ، ولكنهم لن يتهجوا لمجيئهم ، فانى أرى حروبا ،

حروبا مريعة ، ونهر التير يفيض بدم غزير ...

٩٣ - ان مثل هذا الشر المستطير ، الذى سيحيق بالتيوكرين

سيكون مرة أخرى بسبب زوجة أجنبية وعرس أجنبي

أما أنت فلا تخضع للشرور ، بل عليك أن تتقدم بجراً لمواجهتها

فى الطريق الذى يسمح به قضاؤك وقدرك • ان أول طريق للنجاة ،

وهذا آخر ما يخطر لك على بال ، سيفتح من مدينة يونانية • •

بينما أخذ قوم آخرون يحملون النعش الضخم على أكتافهم ، وياله من عمل محزن ، ويمسكون شعلة النار التي توضع الى أسفل ، ووجوههم الى الخلف طبقا لعادة الأسلاف . لقد احرقت فرايين مكدسة من البخور ولحوم الاضحيات والأواني المفعمة بزيت الزيتون .

وبعد أن خمد الرماد وانطفأ اللهب ، رشوا بالنبيذ الرفات المتبقى والرماد الظمآن ، ثم وضع كورينا يوس العظام المتجمة في اناء برونزي .

وهو نفسه دار حول خلانه ثلاث مرات ليظهرهم بالماء الطهور ، بأن أخذ ينثر الندى الخفيف يغصن من شجرة زيتون مشرة : ظهر الرجال ثم قال كلمات الوداع الأخيرة .

أما أينياس الورع فقد أقام قبرا ضخما ، ووضع للرجل أسلحته الخاصة، الا وهي مجدافه وبوقه ،

تحت تل مرتفع يسمى الآن باسمه ميسينوس .

وهو يحتفظ بذلك الاسم الخالد عبر الدهور .

وبعد ذلك يواصل « اينياس » السير بحثا عن الغصن الذهبي ، حتى يتمكن من العثور عليه بسعونة زوج من الحمام أرسلته أمه « فينوس » لتدله عليه وما ان يعثر « أينياس » على الغصن الذهبي حتى ينزعه ثم تقدم القرايين لآلهة العالم الآخر

٢٥٥ لكن انظر، ها قد بدأت الأرض تخور تحت أقدامهم

وعندما يرجو « أينياس » الكاهنة أن تسمح له بالذهاب الى العالم الآخر ، ليشهد أباه مرة أخرى ، فانها تطلعه على الطريقة التي تمكنه من تحقيق مأربه ، كما تطلب منه البحث عن الغصن الذهبي ونزعه ، اذ بدونه لن تفتح أبواب العالم الآخر ؛ ثم تأمره بدفن جثة أحد زملائه . وبعد خروج « أينياس » من كهف العرافة ، يرى جثة « ميسينوس - Misenus » ضارب النفير الذي أغرقته الآلهة لتحديه اياها بموسيقى نفيره ، التي كان يلهب بها حماس الرجال فيهبون للقتال تائرين ، فينفذ أمر الكاهنة في الحال ويقوم بطقوس الدفن .

٢١٢ - وفي أثناء ذلك لم يقل بكاء التيوكرين على الشاطئ

من أجل ميسينوس، وقاموا بتقديم الطقوس الأخيرة الواجبة للرفات الذي فقد الشعور ، فقد هيثوا له أولا مكانا ضخما للاحراق

وغنيا بقطع من خشب الأناناس وابلوط ، ونسجوا الجوانب بأوراق قاتمة ، وفي الأمام وضعوا أشجار السرور الجنائزية ، وزينوا الجزء العلوى بأسلحة وضاعة .

أسرع قوم بأعداد الماء الساخن في قدور نحاسية تغلي

فوق اللهب، وغسلوا جثمان الميت البارد وضمخوه .

ثم علا الصراخ . عندئذ يعبدون وضع الجسد الذي يكون عليه فوق النعش، ويلتقون عليه الرداء القرمزي ، ذلك الغطاء المعروف .

تشر فروعها وأذرعتها العتيقة ، وهى التى
يزعم العامة أن الأحلام الزائفة تسعى للسكنى بها
وتلتصق بكل ورقة منها •
وبالإضافة الى ذلك ربضت أشكال متوحشه
لحيوانات مختلفة •

.....

٢٩٥ من هنا يبدأ الطريق الذى يؤدي
الى مياه أخيرون الترتارى .

وهنا دوامة سريعة تغلى بالطمي وباضطراب
مائى واسع ،

وتصب كل الرمال فى نهر كوكيتوس .
ويرعى هذه المياه وتلك الأنهار ملامح مخوف ،

هو خارون ذو الهيئة الرثة المخيفة ، الذى
له لحية كثة بيضاء

تغطى عارضيه ، وعينه تقدحان شيرا ،
وتتعلق ثيابه الرثة من كتفيه بعقده •

وهذا الملامح نفسه يدفع قاربه من أسفل
بالمجداف ، ويدير حركته بالشراع ،

ويحمل الاجساد فى قاربه الأزرق الصدى ،
لقد أصبح الآن كهلا ، ولكنه بوصفه الها

له شيخوخة صلبة مزدهرة •

الى هذا الموضع تتدافع الى الشواطىء من
كل فج كل تلك الجموع :

أمهات واباء ، وأجساد أبطال عظام

قضت نجها فى الحياة ، وفتيان وفتيات
عذارى ،

وشباب حرق أجسادهم أمام أعين ذويهم ،

عند شروق أشعة الشمس ، كما بدأت
أرجاء الغابة تهتز •

وخيل اليهم أن الكلاب تعوى خلال الظلام
عند مقدم الهة . « ابتعدوا ، ابتعدوا يا
من لم تطلعوا على الاسرار المقدسة »

صاحت الكاهنة ، « ابتعدوا عن كل الغابة ؛
وأنت يا أبنياس شق طريقك واستل
سيفك من غمده ،

فهذا وقت الشجاعة ، وهذا وقت القلب
المتين » ..

٢٧٣ أمام المدخل نفسه وفى بداية فتحات
أوركوس

استقرت الأحزان المنتقمة ،
وسكنت الأمراض الشاحبة والشيخوخة
المحزنة ،

والخوف والجوع الذى يدفع المرء الى
الشروع ، والعوز البغيض ،

والموت والكد ، وهى أشكال بشعة المنظر ،
ثم توأم الموت أغنى النعاس ، ورغبات النفس
الشريرة ؛

وفى الجهة المقابلة وجدت الحرب حاملة
الدمار ،

وغرف الايومينيديس الحديدية ، والنزاع
المجنون ،

وقد نسج شعره الشعبانى بجداول داميه .
وفى الوسط تشر شجرة دردار ضخمة
وارفة الظلام

مثلهم كمثل العدد الجيم من الأوراق المتساقطة
فى الغابات

فى أول برد الخريف، أو كمثل أسراب
الطير التى تتجمع

من أقصى البحار لتأتى الى اليابسة ، عندما
يدفعها فصل الشتاء

البارد عبر البحار ويبعث بها الى الأرضى
الدافئة •

لقد رفض « خارون » أول الأمر حمل
« أيناس » والكاهنة فى قاربه ، ولكنه ، عندما
رأى الفصن الذهبى الذى الذى لم يره منذ أمد
بعيد ، اقترب باقربه منهما ، واستقبلهما مرحبا .
وما ان عبر « أيناس » والكاهنة هذا النهر ،
حتى سمعا عومل وصراخ من ماتوا ولم يتجاوزوا
مرحلة الطفولة ، كما مروا بأشباح من وجهت
اليهم اتهامات كاذبة ، وبأشباح من قتلوا انفسهم .
وفى الوديان الحزينة

يلتقيان بمن ماتوا من قسوة الحب ؟

٥٠ : وكان من بين هؤلاء ديدو الفينيقية التى
لم يندمل جرحها بعد ،

وهى تتجول فى الغابة العظيمة • وما ان
يقف البطل الطروادى

قريبا منها ويتعرف على طيفها خلال الظلال ،
كمن يرى أو يحسب انه يرى القمر
يطلع

فى أول الشهر خلال السحاب ،

حتى انهمرت دموعه وخاطبها بحب
رقيق :

« أى ديدو البائسة ، أهو حق اذن ذلك
الخبر الذى

وصلنى بأنك مت ، وأنت لقيت حتفك بحد
السلاح ؟

وا أسفاه ! أكنت أنا السبب فى موتك ؟
أقسم بالنجوم ،

وبالسماوات العلا ، وبكل ايمان موثوق به
فى العالم السفلى ،

بأنى ما رحلت عن شاطئك ، أيتها الملكة ،
الا مكرها •

ولكن أوامر الآلهة التى اضطرتنى الآن أن
أسير

خلال هذه الظلال عبر الأماكن الوعرة
الموحشة فى الليل البهيم ،

وأن أسعى فى طلب مملكتى ، والا أثق
فيما أرغب ،

هى التى أجبرتنى على أن أسبب لك مثل
هذا الحزن العظيم برحلى عنك •

توقى عن السير ، ولا تنأى بنفسك عن
ناظرى •

ممن تهربين ؟ فهذه الكلمات التى أتوجه
بها اليك هى آخر كلماتى لك ، هكذا أشاء
الأقدار » .

بمثل هذه الكلمات حاول « أيناس » أن
يهدىء من روع طيف « ديدو » ، ويستدر
عطفها ؛ أما هى فلم تتأثر ملامحها من حديثه بأكثر
مما يتأثر الحجر الأصم ، وفرت من أمامه كأنه

عدو لها واتجهت الى زوجها السابق «سيخايوس» ،
ليسرى عن أحزانها ويبادلها حبا بحب •

يتابع «أينياس» سيره مع الكاهنة حتى
يمرا بالأراضي المنعزلة «Arva Ultima» التي يكتظ
بها من علت شهرتهم في الحرب • ومن هناك يرى
«أينياس» أسوارا عالية يحوطها نهر «فليجيثون
— Phlegethon» المتأجج ، وهذه الأسوار ، كما
أخبرته الكاهنة هي أسوار «تارتاروس» سجن
من حكمت عليهم الآلهة بالعذاب الأبدى •

وأخيرا يصلون الى مقر الصالحين «Elysium»
، حيث يلتقى بروح أبيه «أثكسيس» ،
الذي يكشف له عن سير الأمور في العالم ، وعن
وسائل التطهير التي تمكن البشر من السماح لهم
بدخول مقر الصالحين ، كما يخبره أبوه بأنه من
هذه الأرض البهيجة «Laeta Arva» سيعود
الى العالم الديوى بعد ألف سنة بعض الرجال
الذين قدر لهم أن يكونوا هم الرومان العظماء ،
ومن بين هؤلاء الرجال أحفاد «أينياس» نفسه ،
ويصف له مغامراتهم في عرض لتاريخ روما
متضمننا الامبراطور «أوغسطس» وابن أخته
ووريثه «ماركيللوس» الذي اختطفه الموت وهو
في ريعضان الشباب عام ٢٣ ق م فكتب عنه
فيرجيل بتلك المقطوعة الشهيرة (٨٦٠ - ٨٨٦)
التي يقال ان أمه الثكلي «أوكنافيا» قد أغشى عليها
عندما قرأها «فيرجيل» في حضرتها ، وقد جاء
في نهايتها (٨٨٢ - ٨٨٦) : واأسفاه أيها الغلام
البأس ، لو تستطيع تحطيم القدر القاسى ،

فسوف تكون ماركيللوس ! هيا املاؤا يدي
بالزنبق ،

دعوني أنثر أزهار البنفسج ، وأكسدي على
الأفل

أكواما من هذه القرايين على روح حفيدي ،
ولأقم

بهذا الواجب البسيط •

وفي الكتاب السابع يعود «أينياس» الى
رفاقه ويتابعون رحلتهم الى مصعب نهر التير ،
فينزلون باقليم «لاتيوم» الذي كان يحكمه
«لاتينوس - Latinus» • وكان لهذا الحاكم
ابنة تسمى «لافينيا - Lavinia» وكانت مخطوبة
لتورنوس - Turnus ملك الروتولين Rutuli
الذين يسكنون احدى المقاطعات في نفس
الاقليم . ولكن كانت هناك نبوءة تعلن أن
القتاة لابد وأن تزوج من أمير أجنبي • عندئذ
يبعث «أينياس» بسفارة الى «لاتينوس» فيستقبلها
بالترحاب ، اذا أيقن أن «أينياس» هو زوج
ابنته المرتقب ، وتنشأ بين الطرفين علاقات ودية •
ولكن الالهة «جونو» كانت للطرواديين بالمرصاد ،
فتتير «تورتوس» الذي يقوم بتسليح أهل لاتيوم
الذين اتحدوا مع الروتولين لمحاربة الغزاة
الدخلاء ، تعاونه في ذلك «أماتا - Amata»
زوجة «لاتينوس» وأم «لافينيا» ، الأمر الذي
يضطر معه «لاتينوس» ان يعلن سخطه عليهم
جميعا ويغلق القصر على نفسه •

أما الكتاب الثامن فنرى فيه أن «اللتير»
الأب قد زار «أينياس» في المنام وأمره بالسعى
في طلب معونة «افاندر - Evander» حاكم
مدينة باللاتيوم - Pallanteum • وفي الصباح
أسرع أينياس الى «افاندر» الذي صجبه في

رحلة حول الأرض المقدسة ، حيث قامت « روما » فيما بعد ، كما أراه الغابة الكابيتولينية الكثيفة التي جعل منها « رومولوس » فيما بعدمحرا بالآلهة . وقد اقترح « افاندر » على « اينياس » أن يطلب معونة الاترسكيين الذين ثاروا ضد حاكمهم الطاغية « ميزيتيوس » واضطروه الى الخروج من بلادهم . فلجأ الى « تورنوس » ، فقبل « اينياس » الاقتراح ، وخرج الى معسكر الاترسكيين ، يصحبه « بالاس - Pallas » ابن « افاندر » . وفي تلك الأثناء استطاعت فينوس أن تقنع زوجها « فولكانوس » أن يصنع لأينياس عدة حربية تتضمن درعا محفورا عليه عرضا لبعض المشاهد المستقبل من تاريخ « روما » حتى معركة « أكتيوم »

وفي الكتاب التاسع تتمكن « جونو » من اقناع « ايريس Iris » الهة النزاع أن تذهب لتثير « تورنوس » حتى يعمل على انتهاز فرصة غياب « اينياس » ، ويقوم بالهجوم على معسكر الطرواديين ويشعل النار في معسكرهم . ولكن « نيتونوس » يحول السفن الى حوريات من عرائس البحر . وبناء على تعليمات « اينياس » التي كان قد تركها لأتباعه قبل رحيله ، يظل الطرواديون خلف الأسوار . وفي اليوم التالى بدأ « تورنوس » الهجوم على الطرواديين من جديد ، وتمكن من اقتحام استحكاماتهم ، ولكنهم قطعوا عليه الطريق ، حتى أنه تمكن من التقهقر بكل صعوبة .

وفي الكتاب العاشر نرى مجلس الآلهة منعقدا وقد ثار به جدل حاد بين « جونو » و « فينوس » حول مصير الحرب ، ولكن

« جوبيتر » قرر ترك الأمر للأقدار . وعلى كل فان « اينياس » تمكن من عقد محالفة مع « تارخون - Tarchon » قائد الاترسكيين ، الذين اعتلوا ظهر أسطولهم ، حتى وصلوا قريبا من معسكر الطرواديين ، رغم مجابهة « تورنوس » لهم . ونشبت بين الفريقين معركة حامية ، أبلى فيها « بالاس » ابن « افاندر » بلاء حسنا ، ولكنه قتل فى النهاية بيد « تورنوس » . فيثور « اينياس » ويشار لمقتله بالقضاء على عدد غير قليل من أبطال الأعداء ، ولكن « جونو » تتمكن من انقاذ « تورنوس » بإبعاده عن الميدان ، فينازل « اينياس » « ميزيتيوس » ويقتله .

يبدأ الكتاب الحادى عشر بعقد هدنة يتم فيها دفن جثث القتلى واقامة الطقوس الجنائزية لهم . ثم يعقد اللاتين مجلسا لمناقشة الموقف الحربى ، حيث يقترح أحدهم وضع حد لهذه الحرب بأن ينازل « تورنوس » « اينياس » فى مبارزة فردية ، ولكن هذا الاقتراح لم يلق التأييد الكامل أمام نصيحة « تورنوس » بضرورة محاولة القيام بمعركة أخرى . وعلى كل فان هذا المجلس ينقض على عجل ، اذ وصلتته أنباء بأن الطرواديين يهاجمون المدينة ، فيهرع الجميع الى القتال وعلى رأسهم « تورنوس » . وبعد معركة طويلة يتراجع اللاتين الى مدينتهم فى فوضى واضطراب .

وفي الكتاب الأخير تعقد هدنة أخرى بين الطرفين ، يتم خلالها انتهاء الحرب بمنازلة « اينياس » لتورنوس . ولكن احدى العرائس ، وهى « جوتورنا - Juturna » أخت تورنوس حرضت الروتولين على خرق الهدنة بالقاء سهم على

والاحتفالات التي كانت تقام في العصور الأولى تمجيدا للبطال العظيم ، وهي تصف أناسا يعيشون تقريبا بنفس الطريقة التي كان يعيش بها من كتبت الأشعار في عصرهم ؛ أما « الانيادة » فهي خلق فني ، كتبها شاعر ينتظر الرعاية من الامبراطور ، ويتوقع النقد من « مايكيناس » وجماعته الأدبية ، وهي تحاول أن تضيء الروح على أشباح الماضي البعيد بحيث تبدو مقبولة لدى أناس يختلفون عنهم تمام الاختلاف في كل شيء . ومن ثم فإن أهم ما يهم « هومر » ومستمعيه هو القصة والأحداث ، ويأتي الشكل الفني في المرتبة الثانية ، أما بالنسبة لفيرجيل وقرائه فإن الصورة الفنية والأدبية في المقام الأول ، وتأتي بعدها حقيقة أحداث القصة .

وفي هذه الناحية الفنية لا يشك أحد في أن « فيرجيل » هو سيد الايقاعات العذبة والتعبيرات الأدبية . فإن الوزن السداسي ، الذي كان عند « انيوس » خشنا غير مصقول ، وعند « لوكريتيوس » ، رغم قوته واحكامه ، تنقصه الرشاقة والتنوع ، قد أصبح عند « فيرجيل » محكما صقيلا متنوعا قادرا على التعبير عن كل العواطف المختلفة . وليس معنى ذلك أن الرشاقة الفنية الظاهرية هي كل شيء عند « فيرجيل » . فالمشاعر عنده عميقة فياضه رغم أنه يحاول السيطرة عليها وكبح جماحها . وان حبه لبلاده واعتزازه بعظمتها وإيمانه بأن رسالتها في حكم العالم قدر مقدور لنشر المدنية والسلام يتخلل كل الملحمة تقريبا ويبرز بين عديد من الأبيات الرائعة .

فشعبها واسع السلطان مزهو بحروبه (٢)

« اينياس » فأصابه بجرح عميق . ولكن « فينوس » جعلت الجرح يندمل في الحال ، بينما شنت « أماتا » نفسها لاعتقادها أن تورنوس « قد لقي مصرعه » وبعد أن صالح « جوبيتر » « جونو » بقراره الذي يتضمن اتحاد الطرواديين مع اللاتين في أمة واحدة ، اشتبك البطلان « اينياس » « وتونوس » في القتال . وسقط « تورنوس » ، واذ هو في النزاع الأخير ، يطلب في رجاء واستعطاف أن يرد جثمانه الى أبيه العجوز .

وكان « اينياس » على وشك أن يرق قلبه لهذا الموقف ، لولا أن رأى حزام « باللاس » حول وسط « تورنوس » ، عندئذ يصرخ صرخة مدوية ويهوى بسيفه فيقضي عليه بضربة قاتلة . بهذا تنتهي ملحمة « فيرجيل » الخالدة « الانيادة » ، التي ظلت تعتبر لقرون عديدة ، وعلى الأخص في القرون الوسطى ، أعظم عمل أنتجته عبقرية انسان ، ولم تخط أى أشعار أخرى ، على الأقل في العالم الغربي ، بمثل ما حظيت به هذه الملحمة من شهرة واسعة واهتمام بالغ من رجال اللغة والأدب . حقيقة ان الانيادة ، باعتبارها ملحمة تصور الحروب والمغامرات ، لا يمكن أن ترقى الى مستوى الايلادة والأوديسا في قوتها وحيويتها . والواقع أن الانيادة والأشعار الهومرية ، رغم ما بينهما من تشابه كبير من ناحية الشكل يغرى دائما بعقد المقارنات بينها ، تختلف عن بعضها اختلافا كبيرا في الروح والطبع ، حتى أنه لا ينبغي ، كما اقترح أحد النقاد (١) ، عقد المقارنات بينها ، فالأشعار الهومرية ثمرة تناج عبقرية فطرية نظمها الشاعر ليتغنى بها أثناء الأعياد

(١) انظر :

T.E. Page Virgil, Aen. VI, Intr. pp. XVIII-XIX.

(٢) الانيادة ، ١ ، ٢١ .

ويقول على لسان « جوتير »

انى لا أضع حدودا لممتلكاتهم أو حدا زمنيا
لسلطانهم

فقد منحهم ملكا لا نهاية له (١).

و نحن أنفسنا سنرفع الى النجوم أحفادك
فى المستقبل

وسنمنح مدينتهم سلطانا (٢).

تذكر ، أيها الرومانى ، أنك تحكم الشعوب
بنفوذك

ستكون لك هذه الفنون

التي تسن بها قانون السلام

وتعفو عن المنهزمين ، وتحارب المتعجرفين (٣)

ولكن رقة « فيرجيل » وحزنه الممزوج
بالتفكير العميق هما سر خلوده . فهو يفكر
طويلا ، ويتألم من تقلبات القدر وقصر الحياة
البشرية ، ولكن حزنه لم ينزل أبدا الى مستوى
اليأس ، فالدرس ، الذى استفاده من أن الموت
حق وأن الحياة قصيرة ، هو الدافع الى الايمان
بضرورة العمل والكفاح .

لكل انسان يوم معلوم ، وان وقت الحياة

قصير لا يعوض بالنسبة للجميع ، ولكن
بالأعمال المجيدة

تمتد الشهرة، وهذا هو عمل البسالة (٤).

ان « فيرجيل » متدين بدرجة عميقة ومؤمن
ايمانا جازما بوجود قوة مهيمنة تكافئ
الأخيار (٥) وتعاقب الأشرار (٦) ، ولكنه حائر
أمام لغز ذلك القدر المحتوم (٧).

وعلى كل حال فان أعمال « فيرجيل » كانت
تقرأ فى عصره على نطاق واسع ، حتى لقد أدخلت
ضمن المقررات المدرسية فى مدارس الأدب
والخطابة (٨) ، مما كان له أكبر الأثر لا على
الأدب فحسب بل على اللغة اللاتينية كلها ، كما
أن أعماله أصبحت موضوعا للتعليق والتحليل
لكثير من النقاد والمعلقين والمهتمين باللغة .
وكان « دانتي » يعتبره أستاذه ومرشده فى الجزء
الخاص بالجحيم (٩) ، وبلغ من تقديس الناس
لفيرجيل أن اعتبروا أعماله كالأزلام Sortes
Vergilianae يستهدون بها قبل القيام بأى
عمل هام ، كما يفعل العامة الآن بالكتب المقدسة ،
كما أن المسيحيين الأول كانوا يرون فى الرعوية
الرابعة ما يشير بظهور المسيحية (١٠).

(٤) الانبياء ، ١٠ ، ٤٦٧ - ٤٦٩ .

(٥) الانبياء ، ١ ، ٦٠٣ وما بعده .

(٦) الانبياء ، ٢ ، ٥٣٥ وما بعده .

(٧) الانبياء ، ٨ ، ٣٣٤ وما بعده .

(٨) قارن سويتونيوس ، عن النحاة ، ١٦ ، جوفينال ٧ ،

٢٧٧ دانتي .

(٩) أنظر دانتي ، الجحيم ، ١ ، ٨٥ - ٨٧ .

(١٠) قارن :

Duff, op. cit., pp. 351-352; T.E. Page, Virgil,
BUC., Intr. pp. XV-XVI.

(١) الانبياء ، ١ ، ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) الانبياء ، ٣ ، ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) الانبياء ، ٦ ، ٨٥١ - ٨٥٣ .